أسواق العرب وأثرها في تطوّر اللغة وازدهار الأدب

الأستاذ المساعد الدكتور: يونس إبراهيم أحمد العِزّي
جامعة عقرة للعلوم التطبيقية/ كلية التربية
alizzy1981@gmail.com
المدرس المساعد: هيوا محمدأمين طاهر السّاعاتي
جامعة عقرة للعلوم التطبيقية/ كلية التربية
saatihiwa@gmail.com

Arab Markets and Their Impact On the Development of Language and The Prosperity of Literature

Assistant Professor: Dr. Younis Ibrahim Ahmed Al-Izzi
University of Akre for Applied Sciences / College of Education

Assistant Lecturer: MA. Hewa Mohammed Ameen Tahir Al-Sa'ati
University of Akre for Applied Sciences / College of Education

(ملخص البحث)

إنَّ اللغة في واقعها ليست وسيلة للتخاطب والتفاهم بين الناس وحسب، وإنّما هي وعاء التفكير ووسيلة التأثير، ومثلها الأدب الذي يمثّل وعي الأمة وقِيمها في أروع صور البيان والتعبير، ولِذا فقد حظيا (اللغة والأدب) بعنايةٍ واهتمامٍ كبيرين عند العرب، وكان من صور تلك العناية وذلك الاهتمام، أسواق العرب ومواسمها، فلم نعرف أمة من الأمم أنشأت سوقاً للكلمة، كما فعلت العرب في أسواقها الأدبية، مثل: (عكاظ) و(مِجَنّة أو مَجَنّة) و(ذي المجاز).

وكان لهذه الأسواق مواقيت ومراسيم خاصة، وقد زامن ازدهارها العصر الجاهلي، الذي كان فيه ما وصل إلينا من شعرٍ وأدبٍ، ومهّدَت السبيل قبيل الإسلام لتوحيد اللغة والأدب، وعمِلَت على إزالة الفوارق بين لهجات القبائل المختلفة.

وعلى الجملة، فقد كان العرب في الجاهلية يتبايعون ويتعاكظون ويتفاخرون ويتحاجّون في هذه الأسواق، ومن هذا كُلّه نرى كيف أنّ هذه الأسواق كانت مركزاً لحركةٍ أدبيةٍ ولغويةٍ واسعة النطاق، مثلما كانت مركزاً لحركة اجتماعية واقتصادية.

هذا ملخص لما يناقشه بحثنا الموسوم بـ(أسواق العرب وأثرها في تطوّر اللغة وازدهار الأدب) ضمن مدخلٍ ومبحثين، إذ تناول المدخل: تعريف بهذه الأسواق ومواسمها ومواطنها ومراسيمها، وخُصِّص المبحث الأول لدراسة: أثر هذه الأسواق في تهذيب اللغة وازدهارها، وأُفرِدَ المبحث الثاني لبيان: أثر هذه الأسواق في تطوّر الأدب وازدهاره.

الكلمات المفتاحية: ***أسواق العرب، ازدهار اللغة، تطوّر الأدب، العصر الجاهلي.***

(Abstract)

In fact, language is not only a means of communication and understanding between people, but rather is the tool of thinking and influence, as literature represents the nation's awareness and values in the finest images of manifestation and expression.

Both language and literature witnessed a great care and attention among Arabs. Among those cares and attentions are the Arab markets and their seasons. We have not known a nation established a market for word, as Arabs did in their literature markets for example (Okaz), (Mijina) and (Thu Al-Fiqar).

These markets had special timetables and decrees. Their heyday flourished in the ignorance period (the pre-Islamic period), in which poetry and literature reached us and paved the way for Islam to unite the language and literature, and worked to remove differences between the dialects of different tribes.

On the whole, the Arabs in the ignorance period were making deals, voicing out poems, showing proud and discussing matters in these markets. From all these, we see how these markets were the center of a vast literary and linguistic movement, as it was the center of a social and economic movement. This is a summary of what is discussed in our research entitled (Arab markets and their impact on the development of language and the prosperity of literature) within three chapters: the first: the definition of these markets and seasons, and its types and decrees, and the second: the impact of these markets in the refinement and prosperity of language; and third: the impact of these markets in the development and prosperity of literature.

Keywords: ***Arab Markets, Development of Language, Prosperity of Literature, Pre-Islamic Era.***

❖ **المدخل: أسواق العرب (مواطنها ومواسمها وأعرافها)**

كان للعرب أسواق كثيرة في نجد والحجاز واليمن وحضرموت، يقيمونها شهور السنة وينتقلون من بعضها إلى بعض *(الآلوسي، ٢٠٠٩م، الصفحات ١/ ٢٦١-٢٦٤)*، وأشهرها أسواق الحجاز وهي (عكاظ) و(مَجَنَّة/مِجَنَّة) و(ذو المجاز)، وعكاظ أشهرها على الإطلاق *(خفاجي، الحياة الأدبية في عصر الجاهلي، ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م، صفحة ١٠٩؛ الزيّات، ١٤٣٠هـ = ٢٠٠٩م، صفحة ١٧؛ أبو زيد و كفافي ، ١٤٣٢هـ = ٢٠١١م، صفحة ٣٨)*.

وإنَّما تميزت هذه الأسواق الثلاث عن غيرها من أسواق العرب الأخرى لأسباب، منها؛ أنَّ أسواق الحجاز كانت تقوم في مواسم الحج أو قبيلها بقليل *(الحموي، ١٤٢٩هـ = ٢٠٠٨م، صفحة ٦/ ٣٤٢)*، أي أنّها كانت تقام في الأشهر الحرم، وذلك بلا ريبٍ "سر قوتها وسبب شهرتها" *(الزيّات، ١٤٣٠هـ = ٢٠٠٩م، صفحة ١٧)*، ومن هنا فإنَّ أسواق الحجاز وعكاظ بخاصة هي أسواق عامة يحضرها جميع العرب، أمّا الأسواق الأخرى فكانت أسواقاً محلية *(خفاجي، ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م، صفحة ١١٠)*، وكان كلُّ شريفٍ إنَّما يحضر سوق بلده إلّا سوق عكاظ فإنَّهم كانوا يتوافدون إليها ويتوافون بها من كلّ جهة، وتقصدها قبائل العرب من كلّ حدبٍ وصوب *(الرافعي، ٢٠٠٩م، صفحة ١/ ٧٧؛ الزيّات، ١٤٣٠هـ = ٢٠٠٩م، صفحة ١٧)*، ولذا فإنّ أكثر حديثنا في البحث سيكون عن هذه السوق وأثرها في اللغة والأدب.

أولاً: مواطن الأسواق ومواسمها

١- **<u>عكاظ:</u>** قال الأصمعي: "عكاظ، نخل في وادٍ بينه وبين الطائف ليلة، وبينه وبين مكة ثلاث ليالٍ، وبه كانت تقوم سوق العرب بموضعٍ منه يقال له: الأثيداء" *(الحموي، ١٤٢٩هـ = ٢٠٠٨م، صفحة ٦/ ٣٤٢)*، وقال الواقدي: "عكاظ بين نخلة والطائف" *(الحموي، ١٤٢٩هـ = ٢٠٠٨م، صفحة ٦/ ٣٤٢)*، وقال الآلوسي: "وهو موسم معروف للعرب، بل كان من أعظم مواسمهم وأسواقهم، وهو [عكاظ] نخل في وادٍ بين نخلة والطائف، وهو إلى الطائف أقرب بينهما عشرة أميال، وهو وراء قرن المنازل بمرحلة من طريق صنعاء اليمن" *(الآلوسي، ٢٠٠٩م، صفحة ١/ ٢٦٤)*.

أمّا سبب هذه التسمية، فيقول الليث: "سميت عكاظاً لأنّ العرب كانت تجتمع فيها فيعكظ بعضهم بعضاً بالمفاخرة" *(منظور، ١٤٢٣هـ = ٢٠٠٣م، صفحة ٦/ ٣٨٥)*، وحكى السهيلي "كانوا يتفاخرون في سوق عكاظ إذا اجتمعوا، ويقال: عكظ الرجل صاحبه إذا فاخره وغلبه بالمفاخرة فسميت عكاظ بذلك" *(الحموي، ١٤٢٩هـ = ٢٠٠٨م، صفحة ٦/ ٣٤٢)*.

وكانت العرب تجتمع في عكاظ كل سنة *(الحموي، ١٤٢٩هـ = ٢٠٠٨م، صفحة ٦/ ٣٤٢)*، أمّا موسم هذه السوق، ففيه قولان، الأول: أنّها كانت تقام أول ذي القعدة إلى عشرين منه، وعلى هذا أكثر الدارسين *(الآلوسي، ٢٠٠٩م، صفحة ١/ ٢٦٧؛ الزيّات، ١٤٣٠هـ = ٢٠٠٩م، صفحة ١٧؛ خفاجي، الحياة الأدبية في عصر الجاهلي، ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م، صفحة ٣٨)*، والثاني: أنّها كانت تقام من نصف ذي القعدة إلى آخره، وهو ما ذهب إليه القلقشندي *(الآلوسي، ٢٠٠٩م، صفحة ١/ ٢٦٧)*.

٢- **<u>مَجَنَّة/مِجَنَّة:</u>** بفتح الميم وكسرها، قال إبن الأثير: "مَجَنَّة موضع بأسفل مكة على أميال، وكان يقام بها للعرب سوق، قال: وبعضهم يكسر ميمها، والفتح أكثر" *(منظور، ١٤٢٣هـ = ٢٠٠٣م، صفحة ٨/ ٢١١)*، وقال الأصمعي: "وكانت مَجَنَّة بمرّ الظهران قرب جبل يقال له: الأصفر، وهو بأسفل مكة عل قدر بُريدٍ منها" *(الحموي، ١٤٢٩هـ = ٢٠٠٨م، صفحة ٧/ ٢٠٩)*، وقال الداودي: "مَجَنَّة عند عرفة" *(الحموي، ١٤٢٩هـ = ٢٠٠٨م، صفحة ٧/ ٢٠٩)*، واستشهد بقول أبي ذؤيب الهذلي:

فوافى بها عُسفانَ ثُمَّ أتى بها مَجَنَّة تصفو في القلالِ ولا تغلي

(الهذلي، ١٤٢٤هـ = ٢٠٠٣م، صفحة ١٩٥)

وقيل: مَجَنَّة بلد على أميال من مكة، وهو لبني الدئل خاصة، وقيل: مَجَنَّة جبل لبني الدئل بتهامة بجنبِ طفيل، وإياه أراد بلال (رضي الله عنه) فيما كان يتمثل:

ألا ليت شعري هل أبيتَنَّ ليلةً بوادٍ وحولي إذخَرُ وجليلُ

وهل أرِدَنَّ يوماً ماء مَجَنَّة وهل يبدونْ لي شامةٌ وطفيلُ

(الحموي، ١٤٢٩هـ = ٢٠٠٨م، صفحة ٧/ ٢٠٩؛ منظور، ١٤٢٣هـ = ٢٠٠٣م، صفحة ٨/ ٢١١؛ الآلوسي، ٢٠٠٩م، صفحة ١/ ٢٦٣)

وأمّا معنى (مَجَنَّة) فقال إبن جنّي: "يحتمل أن يكون من مَجَنَ وأن يكون من جَنَّة، وهو الأسبق، وقد ذُكِرَ ذلك في ترجمة جَنَنَ أيضاً" *(منظور، ١٤٢٣هـ = ٢٠٠٣م، صفحة ٨/ ٢١١)*، وقال الحموي: "مَجَنَّة: بالفتح وتشديد النون إسم المكان من الجُنَّة، وهو الستر والإخفاء، ويقال: به جنونٌ وجِنَّة و مَجَنَّة، وأرضٌ مَجَنَّة: كثيرة الجن" *(الحموي، ١٤٢٩هـ = ٢٠٠٨م، صفحة ٧/ ٢٠٩)*، وأما موسم هذه السوق فكانوا ينتقلون إليها من سوق عكاظ فيقيمون فيها العشرة الأواخر من ذي القعدة، وهو ما يذهب إليه أكثر الدارسين *(الحموي، ١٤٢٩هـ = ٢٠٠٨م، صفحة ٧/ ٢٠٩؛ خفاجي، ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م، صفحة ١١٦؛ أبو زيد و كفافي ، ١٤٣٢هـ = ٢٠١١م، صفحة ٣٨)*.

٣- **<u>ذو المجاز:</u>** قال الحموي: "وذو المجاز موضع سوق بعرفة على ناحية كبكب عن يمين الإمام على فرسخٍ من عرفة... وقال الأصمعي: ذو المجاز ماءٌ من أصل كبكب، وهو لهذيل، وهو خلف عرفة... قال المتوكل الليثي:

للغَانياتِ بذي المجازِ رسومُ في بطنِ مكةَ عهدَهُنَّ قديمُ"

(الحموي، ١٤٢٩هـ = ٢٠٠٨م، صفحة ٧/ ٢٠٧)

ووَهَمَ الجوهري حين قال: "ذو المجاز موضع بمنى كانت فيه سوق في الجاهلية" *(الفارابي، ١٤٣٠هـ = ٢٠٠٩م، صفحة ٢/ ٥٣٧)*، لأنّ العرب كانوا لا يبيعون ولا يبتَعون في الجاهلية بعرفة ولا منى *(الآلوسي، ٢٠٠٩م، صفحة ١/ ٢٦٣)*، وقيل: سُمّي بذلك "لأن إجازة الحاج كانت فيه" *(منظور، ١٤٢٣هـ = ٢٠٠٣م، صفحة ٢/ ٢٦٣)*، أمّا موسمُ هذه السوق فكانوا يقيمون فيها ثمانية أيام من ذي الحجة ثم يقفون بعرفة في اليوم التاسع *(الحموي، ١٤٢٩هـ = ٢٠٠٨م، صفحة ٧/ ٢٠٧؛ الآلوسي، ٢٠٠٩م، صفحة ١/ ٢٦٧؛ خفاجي، ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م، صفحة ١١٦؛ أبو زيد و كفافي ، ١٤٣٢هـ = ٢٠١١م، صفحة ٣٨)*.

وهناك رأي آخر في موسم هذه الأسواق وزمان إنعقادها، وهو ما ذكره ياقوت الحموي نقلاً عن الواقدي، حيث قال: "كانت العرب تقيم في سوق عكاظ شهر شوال ثم تنتقل إلى سوق مَجَنَّة فتقيم فيه عشرين يوماً من ذي القعدة ثم تنتقل إلى سوق ذي المجاز فتقيم فيه إلى أيام الحج" *(الحموي، ١٤٢٩هـ = ٢٠٠٨م، صفحة ٦/ ٣٤٢)*، ويرى العلامة الآلوسي أن إختلاف الروايات في موسم هذه الأسواق وزمان إنعقادها، قد يكون، بسبب إختلاف العادة في السنين أو لإختلاف القبائل في الإقامة في هذا الموسم أو ذاك *(الآلوسي، ٢٠٠٩م، صفحة ١/ ٢٦٧)*.

ثانياً: مراسيم الأسواق

كانت لهذه الأسواق مراسيم خاصة تُنظِّمُ مواسمها وتديرُ شؤونها، فكانت كل قبيلة من القبائل تنزِلُ في مكانٍ خاص بها في هذه الأسواق، وتتلاقى أفراد القبائل عند البيع والشِراء أو في الحلقات المختلفة، فكان الناس يجتمعون على سرحة، أو حول الخطيب يخطبُ على منبر، أو في قباب من أدَم تقامُ هنا وهناك، ويختلط الرجال بالنساء في المجامع، وقد يكون ذلك سبباً في خِطبةٍ أو زواجٍ أو تنادُر *(الأصفهاني، ١٤٢٥هـ = ٢٠٠٤م، صفحة ١٠/ ١٤٥ وما بعدها، ٣/ ١٤٠ وما بعدها)*.

وكانت تحضر هذه الأسواق – وخاصة سوق عكاظ – أشراف القبائل، فكان الأشراف يتوافونَ بتلك الأسواق مع التُجار، مِن أجل أنّ الملوك كانت ترضخ للأشراف، لكلّ شريف بسهم من الأرباح، فكان شريف كل بلدٍ يحضر سوق بلده، إلاّ عكاظاً فإنهم كانوا يتوافون بها ويفدون إليها من كُلِّ أوبٍ وصوب *(الآلوسي، ٢٠٠٩م، صفحة ١/ ٢٦٤؛ خفاجي، ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م، صفحة ١١٣)*.

وكان الأشراف يمشون في هذه الأسواق ملثمين؛ مخافة أنْ يؤسروا يوماً فيكبر فداؤهم، فكان أوّل من رفع اللثام (طريف العنبري)، وطريف هذا "كان من مشاهير شجعان العرب وفرسانهم، قتل مرَّةً رجلاً من بني شيبان ثم حضر ذلك الموسم، فأمعن فيه النظر بعض أقارب ذلك المقتول، فسأله طريف عن السبب، فقال: أريد أن أعرفك فلعلي أصادفك يوماً لأقتلك أو تقتلني" *(الآلوسي، ٢٠٠٩م، صفحة ١/ ٢٦٥)*، فلمّا رآهم

يطلعون في وجهه ويتفرسون في شمائله قال: "قَبُحَ مَن وَطّنَ نفسه إلّا على شرفه"، وحَسَرَ عن وجهه، ثم أنشد قائلاً:

أو كُلّما وَرَدَتْ عكاظُ قبيلةٌ ... بعثوا إليَّ عريفَهُم يَتَوَسَّمُ

فتوسّموني إنّني أنا ذلِكُم ... شاكي سلاحي في الحوادث مُعلَمُ

فَوقي الأغرُ وفوقَ جلدي نَثرةٌ ... زَعَف تردُّ السيفُ وهو مُثَلَّمُ

حولي أسيدُ والهجيمُ ومازنٌ ... وإذا حَلَلتُ فحولَ بيتي خضَّمُ

ولكلِ بكري لديَّ عداوةٌ ... وأبو ربيعةَ شانئٌ ومُحلَمُ

(المرزوقي، ١٣٣٢هـ، صفحة ٢/ ١٦٦)

ولمّا كانت هذه الأسواق مجمع القبائل العربية، فقد كانت محلاً لفض الخصومات وفداء الأسرى، فَمَن كان له أسير سعى في فدائه، ومَن كانت له حكومة ارتفع إلى الذي يقوم بأمر الحكومة، وهو رئيس الموسم *(الآلوسي، ٢٠٠٩م، صفحة ١/٢٦٤)*.

وكان على عكاظ كلها رئيس إليه أمر الموسم، وإليه القضاء بين المتخاصمين، وكان أمر الموسم وقضاء عكاظ في بني تميم، وكان مِمّن اجتمع له ذلك منهم عامر بن الظراب العدواني وسعد بن زيد بن مناة مِن تميم، وقد فخر المخبل بذلك في شعره قائلاً:

ليالي سعد في عكاظ يسوقُها ... له كُلُّ شرقٍ من عُكاظ ومغربِ

(الضامن، ١٩٧٣م، صفحة ١٢٤)

وبقي ذلك حتى جاء الإسلام فكان يقضي بعكاظ محمد بن سفيان بن مجاشع، وكان أبوه يقضي بينهم في الجاهلية وصار ذلك ميراثاً لهم *(المرزوقي، ١٣٣٢هـ، صفحة ٢/ ١٦٧)*، وكان في هذه الأسواق صخور يطوفون بها ويحجّون إليها *(الحموي، ١٤٢٩هـ = ٢٠٠٨م، صفحة ٦/ ٣٤٢)*.

ثالثاً: تأريخ الأسواق من النشأة إلى الزوال

عاصرت هذه الأسواق العصر الجاهلي، ومِن العسير جداً أن نحدِّد تأريخ نشأتها *(خفاجي، ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م، الصفحات ١١٤-١١٥)*، فعكاظ مثلاً – وهي أشهر هذه الأسواق – أَقدَم مِمّا ذهب إليه الآلوسي في بلوغ الأرب حين قال: "إنما اتخذت سوقاً بعد الفيل بخمس عشرةَ سنة" *(الآلوسي، ٢٠٠٩م، صفحة ١/ ٢٦٧)*، ذلك أنّنا "إذا بحثنا في الأحداث التي رُويت في عكاظ وجدنا ذلك غير صحيح، فهم يروون أنَّ عمرو بن كلثوم أنشدَ قصيدته في عُكاظ، وعمرو بن كلثوم كان قبل ذلك" *(خفاجي، ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م، صفحة ١١٤)*.

وقد عدَّ المرزوقي في الأزمنة والأمكنة مِن رؤساء عكاظ قبل الإسلام عشرة، أولهم: عامر بن الظرب العدواني *(المرزوقي، ١٣٣٢هـ، صفحة ٢/ ١٦٧)*، وهذا – من غير شكٍ – يجعل تاريخ عكاظ أبعدُ ممّا حكاه الآلوسي بزمان طويل *(خفاجي، ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م، صفحة ١١٤)*.

كما عاصرت هذه الأسواق الإسلام، فقد قصدها النبي (صلى الله عليه وآلهِ وسلم) يبثُ فيها دعوته، واستمرّت في عهد الخلفاء الراشدين والعهد الأموي وبدايات العهد العباسي، ولكن حياة هذه الأسواق في الإسلام كانت أضعف من حياتها في الجاهلية، وقد بدأ ضعفها من وقت الهجرة، لِمَا كان من غزوات وحروب بين مكة والمدينة وبين المؤمنين والمشركين، فلمّا فُتِحت الفتوح رأى العرب في أسواق المدن المتحضرة في فارس والشام والعراق ومصر عوضاً عنها *(خفاجي، ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م، صفحة ١١٥)*.

ولم تزل هذه الأسواق قائمة في الإسلام، فكان أول ما تُرِكَ منها سوق (عكاظ) في زمن خروج الخوارج الحرورية بمكة مع المختار بن عوف سنة تسع وعشرين ومائة، فنهبوها فتركت إلى الآن، ثم تركت (مَجَنّة) و(ذو المجاز) بعد ذلك، وكان آخر ما ترك من هذه الأسواق سوق (حُباشة) في زمن داود بن عيسى بن موسى العباسي سنة سبع وتسعين ومائة، حين أشار عليه فقهاء أهل مكة بتخريبها فخربها وتركت إلى

اليوم، وختمت بذلك صفحة لحياة حافلة ذات أثر سياسي واجتماعي وأدبي *(الآلوسي، ٢٠٠٩م، صفحة ١/ ٢٦٧)*.

❖ **المبحث الأول: أثر الأسواق في تهذيب اللغة وتطوّرها**

مِن المعروف أنَّ اللغة العربية مَرَّتْ بأطوار عِدّة من التطوّر والتهذيب، حتى وصلت إلى اللغة العربية المحضة (العدنانية) أو(المضرية) الفصحى الخالصة التي صارت فيها بعد (لغة قريش) واللغة الأدبية لكل قبائل العرب، ويُوجزُ العلماء أطوار تهذيب اللغة العربية في عاملين، الأول: هجرة القبائل، والثاني: اجتماع القبائل واختلاط بعضهم ببعض *(الرافعي، ٢٠٠٩م، الصفحات ١/ ٧٠-٧٦؛ خفاجي، ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م، الصفحات ١٠٠-١٠٧)*، والأخير هو بسبب الأسواق وعملِها وما تركته مِن أثر في الحياة العربية، وفيما يأتي بيان ذلك وتفصيله.

أولاً: <u>هجرة القبائل</u>

ومن ذلك هجرة المعينيين من العراق إلى اليمن، فقد انحرفت لغتهم البابلية ثم استقلّتْ فسمّيت (اللغة المعينية)، وهجرة السبئيين أو القوطانيين من الحبشة أو من العراق إلى جنوب شبه الجزيرة العربية في القرن الثامن قبل الميلاد، فاقتبسوا لغة المعينيين وتوارثوا، وتحوّلتْ بمرور الزمن حتى صارت لغة جديدة هي (اللغة السبئية)، وكانت هي لغة الحميريين إلّا أنها اكتسبتْ صفات جديدة بفعل الزمن وتبدّل الحياة والمعيشة *(جمعة، ١٣٤٤هـ = ١٩٢٦م، الصفحات ١٢٣-١٢٥؛ الرافعي، ٢٠٠٩م، الصفحات ٦٢-٦٤)*.

ومنها هجرة النبي إسماعيل (عليه الصلاة والسلام) إلى مكة وإقامته بها، وجاور جُرهم الثانية القحطانية وخالطها وصاهرها وتكلم بلغتها – وهي اللغة القحطانية – ثم خرج أولاد إسماعيل (عليه الصلاة والسلام) ومنهم انشعبت القبائل بعد أن كانت لغتهم قد اشتدَّتْ وقطعت مسافة بعيدة من الفرق بينها وبين أصلها الذي اشتُقّتْ منه، فابتدأت تأخذ صورة متميزة من الاستقلال، هكذا نشأت اللغة العدنانية، وكانت نشأتها

هي واللغة الحميرية في وقت واحد على الأرجح وذلك قبل الميلاد بقَرنٍ واحد أو قبل البعثة بسبعمائة عام *(جمعة، ١٣٤٤هـ = ١٩٢٦م، الصفحات ١٢٣-١٢٥؛ ولفنسون، ١٩٢٩م، الصفحات ٢٢٧-٢٥٢؛ الرافعي، ٢٠٠٩م، صفحة ١/ ٧٣)*.

ثم أفادت العدنانية وتطورت حتى نضجت وصارت اللغة العربية الفصحى واللغة الأدبية لجميع العرب، وفي هذا يقول الاستاذ (محمد لطفي جمعة): "ومن المجمع عليه لدى علماء أصول اللغات، وعلماء المشرقيات، أنَّ هذه العربية المحضة – العدنانية – هي الغاية التي انتهت إليها تلك اللغات، وكانت جميعها روافد تغذي نهرها العظيم، فالحبشية والسبئية والحميرية والعبرانية والنبطية وما تخلف عنها من لهجات متنوعة خدمت كلها تلك المضرية الفصحى الخالصة" *(جمعة، ١٣٤٤هـ = ١٩٢٦م، صفحة ١٢٥)*.

ومن هنا فإنَّ اللغة العدنانية (لغة شمال الجزيرة العربية/ لغة أهل الحجاز) هي أحدث من اللغة القحطانية (لغة جنوب الجزيرة العربية/ لغة أهل اليمن)، وما روي إلينا من شعر جاهلي فهو بها، لأنَّ الشعراء الذين نظموا هذا الشعر إمّا من (ربيعة) أو(مضر) وهما فرعان عدنانيان، وإمّا من قبائل يمنية رحلت إلى الشمال كـ(طي) و(كندة) و(تنوخ) بسبب (سيل العرم) الذي أدى إلى هجرة القحطانيين إلى الحجاز والاختلاط بالعدنانيين، وكان ذلك حوالي ميلاد السيد المسيح (عليه الصلاة والسلام) *(خفاجي، ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م، الصفحات ١٠٣-١٠٧؛ الأسكندري، أمين، الجارم، البشري، و ضيف، ١٤٢٥هـ = ٢٠٠٤م، صفحة ٢٢)*.

بل إنَّ اللغة العربية العدنانية هي من أحدث اللغات السامية عهداً وأقربها ظهوراً، وكل ما أُلف ودُوّن عنها وما روي من آثارها فهو ليس بعيداً عن البعثة المحمدية بأكثر من مائة عام تقريباً، ثم أخذت عوامل تهذيب اللغة العربية العدنانية تعمل عملها، باختلاط القبائل العربية بعضها ببعض، ورحلات القرشيين في البلاد واتصالهم بالأمم الأخرى، حتى صارت اللغة الفصحى والأدبية لكل القبائل العربية ثم نزل القران الكريم فأضفى على العدنانية ثوب القوة والخلود، فاللغة العدنانية هي اللغة

التي يعنينا البحث عنها، وهي التي ينصرف إليها الحديث عند إطلاقنا لفظ (اللغة العربية) *(ولفنسون، ١٩٢٩م، صفحة ٢١٥؛ خفاجي، ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م، الصفحات ١٠٠-١٠٤)*، هذا هو العامل الأول من عوامل تهذيب اللغة العربية.

ثانياً: <u>إجتماع القبائل واختلاط بعضهم ببعض</u>

وهو العامل الثاني من عوامل تهذيب اللغة العربية وتطويرها، وفيه يتجلى دور الأسواق وعملها، إذ "كانت العرب يأخذ بعضها عن بعض بالمخالطة والمجاورة، فربما انتقل لسان العربي عن لغته إلى لغة قبيلة أخرى، وربما تداخلت اللغات فنشأت من اللغتين لغة ثالثة" *(الرافعي، ٢٠٠٩م، صفحة ٧٦)*.

وكان لهذا الاجتماع والاختلاط بين القبائل أسبابٌ شتّى وصورٌ عِدَّة، يقول الاستاذ الرافعي في هذا الشأن: "وساعدتهم على ذلك مواقعهم وأيّاهم وأسواقهم التي يقصدونها للتسوّق والبياعات والمنافرة والحكومة وغيرها مِمّا هو من طبيعة المخالطة، وهذا هو الدور الثاني من أدوار تهذيب العربية" *(الرافعي، ٢٠٠٩م، صفحة ٧٦)*، وأمّا طبيعة هذا الاختلاط فتتجلّى في ثلاث صور:

١- **<u>الحروب:</u>** وهي من أكبر أسباب تحالف القبائل واتحادها واختلاطها واجتماعها، وكثيراً ما كانت الأسواق – ولا سيما سوق عكاظ – مسرحاً لهذا الحروب أو سبباً لها، وكان "بعكاظ وقائع مرّة بعد مرّة" *(الآلوسي، ٢٠٠٩م، صفحة ١/ ٢٦٥)*، وإنّما سمي عكاظ لذلك، قال ابن منظور: "وعكظ الشيء يعكضه: عركه، وعكظ خصمه يعكضه عكضاً: عركه وقهره... وتعاكظ القومُ: تعاركوا... ومنه يوما عكاظ لأنّه كانت بها وقعةٌ بعد وقعة" *(منظور، ١٤٢٣هـ = ٢٠٠٣م، صفحة ٦/ ٣٨٥)*، ولذلك قال دريد بن الصمة:

تغيّبتُ عن يَومَيْ عكاظ كليهما وإنْ يَكُ يومٌ ثالثٌ أتغيَّبُ

وإنْ يَكُ يومٌ رابعٌ لا أكُن به وإنْ يَكُ يومٌ خامسٌ أتجَنَّبُ

(الآلوسي، ٢٠٠٩م، صفحة ١/ ٢٦٥)

ولذلك كان الأشراف يمشون في عكاظ ملثمين، فكان أول من رفع اللثام (طريف العنبري) وكان طريف "من مشاهير شجعان العرب وفرسانهم، قتلَ مرّةً رجلاً من بني شيبان ثم حضر ذلك الموسم، فأمعن فيه النظر بعض أقارب ذلك المقتول، فسأله طريف عن السبب فقال: أريد أن أعرفك فلعلي أصادفك يوماً لأقتلك أو تقتلني... وقد صادف ذلك الرجل طريفاً في يوم من أيّامهم فقتله وأخذ منه ثأر قريبة" *(الآلوسي، ٢٠٠٩م، صفحة ١/ ٢٦٥)*، وأشار طريف ألى ذلك في شعره فأنشد قائلاً:

أو كُـلّما ورَدَتْ عـكاظ قـبـيـلةٌ بعـــثوا إليَّ عريفَهُم يَتَوَسَّـــمُ

(المرزوقي، ١٣٣٢هـ، صفحة ٢/ ٦٦٦)

وكان بين ربيعة ومضر أحداثٌ كثيرة وحروب طويلة، أحياناً بين قبائل مختلفة من ربيعة، وأحياناً بين قبائل مختلفة من مضر، وأحياناً بين قبائل من ربيعة وقبائل من مضر، ومن حروب مضر حروب (الفِجَار) وكانت لقريش وكنانة على هوازن *(الأسكندري، أمين، الجارم، البشري، و ضيف، ١٤٢٥هـ = ٢٠٠٤م، صفحة ٣٠)*، قال الأصمعي: "عكاظ، نخل في وادٍ بينه وبين الطائف ليلة وبينه وبين مكة ثلاث ليالٍ وبه كانت تقام سوق العرب بموضع منه يقال له: الأثيداء وبه كانت أيام الفِجار" *(الحموي، ١٤٢٩هـ = ٢٠٠٨م، صفحة ٦/ ٣٤٢)*.

وأيام الفِجار هي حروبٌ أربع، وكُلَّها في عكاظ، قال أبو عبيدة: "كان بعكاظ أربعة أيام: يوم شمطة، ويوم شرب، ويوم الحريرة،وهي كلها من عكاظ، قال: فشمطة من عكاظ هو الموضع الذي نزلتْ فيه قريش وحلفاؤها من بني كنانة بعد يوم نخلة، وهو أول يوم اقتتلوا فيه من أيام الفِجار بحولٍ على ما تواعَدتْ عليه مع هوازن وحلفائها من ثقيف وغيرهم، فكان يوم (شمطة) لهوازن على كنانة وقريش ولم يُقتل من قريش أحدٌ يُذكر، واعتزلتْ بكر بن عبد مناة بن كنانة إلى جبل يقال له (رخم) فلم يقتل منهم أحد، وقال خداش بن زهير:

فـــأبلـــغ إنْ بلغـــتَ به هشـــاماً وعـــبد الله أبـــلـغ والـــولـــيدا

بأنّا يـــوم (شمطة) قد أقـــمنا عَمُودَ الـدّينِ أنَّ لـه عـــــمودا

ثم التقى الأحياء المذكورون على رأس الحول من شمطة (بالعبلاء) إلى جَنبِ عكاظ، فكان لهوازن أيضاً على قريش وكنانة، قال خداش بن زهير:

ألـــم يـبـلـغـكُـمُ أنّـا جَـدَعـنـا لـدى العبلاء خنـدفَ بـالقبـادِ

ضـــربنـاهم ببطنِ عكـاظ حتى تـــــولّوا طالعينَ من النجـــــادِ

ثم التقوا على رأس الحول وهو اليوم الرابع من يوم نخلة (بشرب) وشرب من عكاظ، ولم يكن بينهم يومٌ أعظم منه، فحافظت قريش وكنانة وقد كان تقدم لهوازن عليهم يومان، وقَيَّدَ أبو سفيان وحرب إبنا أمية وأبو سفيان بن حرب أنفسهم وقالوا: لا يبرح مِنا رجلٌ مكانه حتى يموتَ أو يظفرَ، فانهزَمَتْ هوازن وقيس كُلّها إلّا بني نصر فإنها صبرت مع ثقيف، وذلك أنّ (عكاظ) بلدهم لهم فيه نخل وأموال فلم يغنوا شيئاً، ثم انهزموا وقُتِلَتْ هوازن يومئذٍ قتلاً ذريعاً، قال أمية بن أسكر الكناني:

ألا ســائــل هــوازن يــوم لاقــوا فـوارسَ مـن كـنـانـة مـعـلـمـيـنـا

لدى شرب وقد جاشوا وجُشنـــــا فـأوعـبَ في الـنـفـيـرِ بـنـو أبـيـنـا

وقال:

قومي اللّذو بعكاظ طيّروا شـــــرراً من رؤوسِ قومِكَ ضرباً بالمصاقيلِ

ثم التقوا على رأس الحول (بالحُرَيرة) وهي حَرّة إلى جنبِ عكاظ مِمّا يلي مَهَبّ جنوبها فكان لهوازن على قريش وكنانة" *(الآلوسي، ٢٠٠٩م، الصفحات ١/ ٢٦٦-٢٦٧؛ الأصفهاني، ١٤٢٥هـ = ٢٠٠٤م، الصفحات ٢٢/ ٤٠-٥٣)*.

ومثلما كانت عكاظ مسرحاً لحروب الفجار، فقد كانت سبباً لها أيضاً، وكان سبب الأولى (يوم شمطة) المفاخرة في سوق عكاظ، وسبب الثانية (يوم العبلاء) تعرض فتية من قريش لامرأة من بني عامر بن صعصعة، وسبب الثالثة (يوم شرب) مقاضاة دائن لمدينه مع إذلاله في سوق عكاظ، وسبب الرابعة (يوم الحُريرة) أنَّ عروة الرَّحَّال ضمن أن تصل تجارة النعمان بن المنذر إلى سوق عكاظ آمنة فقتله البرَّاض

بن قيس الكناني في الطريق، وكان رجلاً خليعاً *(هلال، ١٤٢٥هـ = ٢٠٠٤م، الصفحات ٢٤٦-٢٥٠)*.

ولا شكَّ أنَّ تحالف القبائل في هذه الحروب التي قد تدوم لسنواتٍ كان له أثرٌ كبيرٌ في اختلاط القبائل بعضها ببعض وتفاهمها، ومن ثَمَّ تقارب لُغاتها ولَهجاتها، وهو عاملٌ مهمٌ في تهذيب اللغة وتطويرها *(خفاجي، ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م، صفحة ١٠٦)*.

٢- **<u>التجارة:</u>** وكانت هي الأخرى سبباً من أسباب اجتماع القبائل واختلاطها، وهي وثيقة الصلة بالأسواق، إذ كانت قبائل العرب تفِد بقوافلها التجارة إلى هذه الأسواق، ولا سيما أسواق الحجازالكبيرة مثل عكاظ ومَجَنَّة وذي المجاز، ومثلما كانت هذه الاسواق ميداناً لاجتماع العرب وتبادلهم التجارة "كانت سبباً في دعم الوحدة والتفاهم بينهم وفي مزجهم بعضهم ببعض، وفي التقريب بين لغاتهم ولهجاتهم" *(خفاجي، ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م، صفحة ١٠٧)*.

وكان لقريش "وهي القبيلة الأخيرة في تاريخ الفصاحة" *(الرافعي، ٢٠٠٩م، صفحة ١/ ٧٥)*، الدور الأكبر في تهذيب اللغة وتطويرها، فقد كانت للقريشيين رحلاتهم التجارية إلى الشام واليمن وفارس والحبشة، وقد تحدّث القرآن الكريم عن ذلك، في قوله (تعالى): ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ﴾ *[قريش: ١-٢]*، فكانوا يأخذون من لغات هذه الأمم بعض ألفاظها ويدخلونها في لغتهم بعد أنْ ينطقوا بها نطقاً عربياً فصيحاً، وهو ما يسمى اليوم بالتعريب (المُعَرّب)، وكذلك حين تَفِد القبائل بقوافلها التجارية إلى مكة وأسواقها فكانوا يأخذون مِن اللهجات أعذبها وأفصحها، وبذلك زادت ثروة اللغة العربية العدنانية (القرشية) وقلّدتْ القبائل الأخرى قريشاً في ذلك وحاكتها في لغتها، وأخذَتْ عنها، فكان بذلك لقريش أثر كبير في تهذيب اللغة، بل كانت تقوم بما تقوم به مجامع اللغة اليوم، حتى صارت لغة قريش أعذب اللغات لفظاً وأبلغها أسلوباً وأوسعها مادة *(خفاجي، ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م، صفحة ١٠٧)*.

٣- **الحج:** وهو أيضاً صورة من صور اجتماع القبائل واختلاطها ببعض، إذ كانت الكعبة (شرَّفها الله تعالى) وجهة العرب وبيت حَجّهم قاطبة في الجاهلية، فكان لكل قبيلة منهم صنم يحجون إليه، حتى قيل إنهم كانوا يقربون القرابين في الكعبة مِن الإبل والغنم لثلاثمائة وستين صنماً *(الرافعي، ٢٠٠٩م، صفحة ١/ ٧٥)*.

وكانت تلك القبائل بطبائعها متباينة اللهجات، وكانت قريش تتصل بهم ويتصلون بها، وكان القريشيون على قسط من المعرفة والرقي الفكري – لتحضرهم الذي ألانَ طباعهم وهذّب لغتهم – وفيهم ذوق ولهم مَلَكات ناضجة في النقد اللغوي، فكانوا يميزون بين اللهجات والألفاظ، ويقتبسون من لهجات القبائل أعذبها، ومِن ألفاظها أسهلها وأفصحها، ويضيفون ذلك إلى لغتهم، فهذبوا لغتهم حتى خلَتْ من السقيم والضعيف والوحشي والغريب والمستبشع من الألفاظ واللهجات *(السيوطي، ١٤١٨هـ = ١٩٩٨م، الصفحات ١/ ١٦٦-١٦٩؛ خلدون، ١٤٢٨هـ = ٢٠٠٧م، صفحة ٥٩٢)*.

وهكذا صارتْ لغة قريش حينذاك لغة الجزيرة كلها، فكان الشعر ينظم بها ليكون أذيع وأشيع، وأقرب إلى فهم كل القبائل *(عتيق، ١٤٣١هـ = ٢٠١٠م، صفحة ٢٨)*، ثم "أنزِل القرآن الكريم بلغة قريش فجمع العرب عليها، وهَذّبها، وجعلها أفصح اللغات، ونشرها في الدنيا وجعلها لغة عالمية بعد أن كانت لغة العرب وحدهم، وبالقرآن الكريم تمّتْ سيادة لغة قريش على لغات جميع القبائل العربية الأخرى ولهجاتهم" *(خفاجي، ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م، صفحة ١١٦)*.

ومثلما كان للحروب والتجارة صِلة بأسواق العرب – على نحو مابيّنا – كذلك الحج كان ذا صِلة وثيقة بالأسواق ومواسمها، إذ كانت مواقيت هذه الأسواق تُعقدُ في شهري ذي القِعدة وأول ذي الحِجة، فإذا انقضَتْ مواسِمُها انصرفَتْ جموع العرب منها إلى الحج، فوقفوا في عرفات يوم التاسع من ذي الحجة *(الآلوسي، ٢٠٠٩م، الصفحات ١/ ٢٦٣-٢٦٧)*، هذا فضلاً عن قرب هذه الأسواق من مكة وشعائر الحج *(الحموي، ١٤٢٩هـ = ٢٠٠٨م، صفحة ٦/ ٣٤٢)*.

وما سادَتْ لغة قريش على سائر لغات العرب إلّا "بفضل الأسواق والحج *(الزيّات، ١٤٣٠هـ = ٢٠٠٩م، صفحة ١٦)*، وهذا ماجعلها واسعة النفوذ والسلطان على سائر قبائل العرب بسبب مركزها الديني الروحي والاقتصادي المادي، إذ كانت قريش حارسة الكعبة بيت عبادتهم، وكانت قوافلها تجوب أنحاء الجزيرة العربية، وكانت قبائل العرب تجتمع إليها في أعيادها الدينية، وفي أسواقها القريبة والبعيدة *(ضيف، ٢٠١١م، صفحة ١٣٣)*.

وهكذا كان للأسواق مثل عكاظ ومَجَنّة وذوالمجاز "وهذه أسواق قريش والعرب" *(الحموي، ١٤٢٩هـ = ٢٠٠٨م، صفحة ٦/ ٣٤٢)*، أثر كبير في اجتماع قبائل العرب واختلاطها، ومن ثم تهذيب لهجاتها وتوحيد لغاتها، إذ "كان العرب يقيمونها في أشهر السنة للبياعات والتسوّق وينتقلون من بعضها إلى بعض، فتدعوهم طبيعة الاجتماع إلى المقارضة بالقول، والمفاوضة في الرأي، والمبادهة بالشعر، والمباهاة بالفصاحة، والمفاخرة بالمحامد وشرف الأصل فكان من ذلك للعرب معونة على توحيد اللسان والعادة والدين والخُلُق" *(الزيّات، ١٤٣٠هـ = ٢٠٠٩م، صفحة ١٧)*.

وعكاظ أكبر هذه الأسواق وأهمها على الإطلاق، إذ "لم يكن فيها أعظم من عكاظ" *(الحموي، ١٤٢٩هـ = ٢٠٠٨م، صفحة ٦/ ٣٤٢)*، ولذا فهي أشهرُ فضلاً وأقوى أثراً في تهذيب العربية *(الزيّات، ١٤٣٠هـ = ٢٠٠٩م، صفحة ١٧)*، يقول الأستاذ أحمد أمين: "كان لعكاظ أثر كبير لغوي وأدبي، فقد رأينا قبائل العرب على اختلافها من قحطانيين وعدنانيين تنزل بها، وملك الحيرة يبعث تجارته إليها، ويأتي التجار إليها من مصر والشام والعراق، فكان ذلك وسيلة من وسائل تفاهم القبائل، وتقارب اللهجات، واختيار القبائل بعضها مِن بعض ما ترى أنه أَلْيَق بها وأنسب لها" *(خفاجي، دراسات في الأدب الجاهلي والإسلامي، ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م، الصفحات ٢٨-٢٩)*.

ويذهب الأستاذ الرافعي إلى أنَّ أهم الأدوار التي قامَتْ قريش مقامها في تهذيب اللغة، هو الدور العكاظي، إذ لايخفى أنّ مثل هذا الاجتماع العام للعرب هو حالة مِن أحوال الحضارة، ولذلك اقتضى الصناعة اللسانية، فكان العرب يرجعون إلى

منطق قريش، وكان القريشيون يبالغون في انتقاد اللهجات وانتقاء الأفصح منها، وصاروا بذلك كأنهم مجمع لغوي يحوط اللغة، ويقوم عليها، ويشدُ أزرها، ويرفع مِن شأنها، ويزيدُ في ثروتها، وبالجملة يحقق فيها كل معاني الحياة اللغوية، وهذا هو الدور الأخيرمن أدوار التهذيب اللغوي *(الرافعي، ٢٠٠٩م، الصفحات ١/ ٧٥-٧٩)*.

وبعد، فقد كان "لهذه الأسواق عملها اللغوي في الفهم والنقد والإيثار والاختيار، ثم في التبادل اللغوي بين القبائل عامة، ممّا كان له أثرٌ كبيرٌ في تهذيب اللغة" *(خفاجي، ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م، صفحة ١١٦)*، وكان لهذا التقريب بين اللهجات وتوحيد اللغات أثر كبير في التقارب والتفاهم بين القبائل العربية، ودعم الوحدة بينها، إذ أنَّ لغتهم هي صورة اجتماعهم ووحدتهم *(الزيّات، ١٤٣٠هـ = ٢٠٠٩م، الصفحات ١٢-١٣)*.

هذا إلى جانب بعض الأسواق التي أنشأها العرب بين دورهم ودور العجم، وكانوا يلتقون فيها للتسوّق والبياعات، وكانت مِن أوسع أبواب الدخيل والمعرّب في اللغة العربية، وأشهر تلك السواق، سوق الأُبلة، وسوق لقه، وسوق الأنبار، وسوق الحيرة *(الرافعي، ٢٠٠٩م، صفحة ١/ ٧٧)*.

❖ المبحث الثاني: أثر الأسواق في تطوّر الأدب وازدهاره

ومثلما كان لهذه الأسواق أثرٌ في تقارب اللغات، ونقد اللهجات وتهذيبها وصقل مفرداتها وأساليبها – على نحو ما بيّنّا في المبحث السابق – فقد كان لها – أيضاً – أثر في الأدب، إذ كانت هذه الأسواق مهرجاناً أدبياً كبيراً، يجتمع فيه الشعراء والخطباء فينشدون ويخطبون.

فكانت قبائل العرب تجتمع في الأسواق – ولاسيما عكاظ – في كُلّ سنة ويتفاخرون فيها، ويحضُرها شعراؤهم ويتناشدون ما أحدثوا مِن الشعر ثم يتفرّقون *(الحموي، ١٤٢٩هـ = ٢٠٠٨م، صفحة ٦/ ٣٤٢)*، وما سميّتْ عكاظ عكاظاً إلّا لذلك، قال الليث: "سُميّت عكاظاً لأنَّ العرب كانت تجتمع فيها فيعكِظ بعضهم بعضاً بالمفاخرة" *(منظور، ١٤٢٣هـ = ٢٠٠٣م، صفحة ٦/ ٣٨٥)*، وحكى السهيلي: "كانوا يتفاخرون إذا

اجتمعوا، ويقال: عكظ الرجلُ صاحبه إذا فاخره وغلبه بالمفاخرة، فسميّت عكاظ بذلك" *(الحموي، ١٤٢٩هـ = ٢٠٠٨م، صفحة ٦/ ٣٤٢)*.

فلم تكن تلك الأسواق للتجارة فحسب، بل كانت سوقاً للشعر والخطابة أيضاً، يجتمع فيها العرب فيتفاخرون ويتناشدون، وكثيراً ما كانت تُقدّمُ فيها المفاخرات والمنافرات *(أبو زيد و كفافي ، ١٤٣٢هـ = ٢٠١١م، صفحة ٣٨)*، وهذا ماجعل الاستاذ الرافعي يطلق عليها تسمية (أسواق الكلام) *(الرافعي، ٢٠٠٩م، صفحة ١/ ٧٨)*.

وقد جاء ذكر هذه الأسواق في الشعر العربي، ومِمّا جاء في سوق عكاظ، قول طريف بن تميم العنبري:

أَو كُـلّما وَرَدَتْ عكاظ قـبـيـلـةٌ بعـثـوا إلـيَّ عَـريـفَهُـمُ يـتـوَسَّـمُ

(المرزوقي، ١٣٣٢هـ، صفحة ٢/ ١٦٦)

وقال النابغة الذبياني:

أَرأيـتَ يومَ عكـاظَ حينَ لقيتني تحتَ العَجاجِ فما شَـقَقْتَ غُباري

(الذبياني، ١٤٣٢هـ = ٢٠١٠م، صفحة ٩٥)

وقال حسان بن ثابت:

سأنشُـرُ إنْ بقيتُ لكـم كـلاماً يُفَـرّقُ في الـمجـامع مِن عُـكـاظِ

(الأنصاري، ١٤١٢هـ = ٢٠١١م، صفحة ٢٢٨)

وقال دريد بن الصمة:

تغيّبتُ عن يومَي عكـاظٍ كليهمـا وإنْ يـكُ يـومٌ ثـالـثٌ أَتـغـيَّـبُ

(الآلوسي، ٢٠٠٩م، صفحة ١/ ٢٦٥)

ومِمّا جاء في سوق مَجَنَّة، قول أبي ذؤيب الهُذلي:

فوافى بهـا عُسـفَانَ ثم أتى بهـا مَجَنَّة تصـفو في القلال ولا تغلي

(الهذلي، ١٤٢٤هـ = ٢٠٠٣م، صفحة ١٩٥)

وإيّاها كان يعني بلال بن رباح (رضي الله عنه) فيما كان يتمثّل:

أَلا ليت شعري هل أبيتَنَّ لـيـلـةً بِـوَادٍ وحـولـي إذخـرُ وجـلـيـلُ

وهـل أرِدَنَّ يـومـاً ميـاهَ مَـجَـنَّـة وهل يبدُوَنْ لي شـامَةٌ وطـفـيـلُ

(الحموي، ١٤٢٩هـ = ٢٠٠٨م، صفحة ٧/ ٢٠٩)

ومثلها سوق ذي المجاز التي كثُرَ ذِكرُها في الشعر، ومن ذلك قول الحارث بن حِلِذة اليشكري:

واذكروا حلف ذي المجاز ومَا قُدْ دِمَ فـيـه الـعـهـودُ والـكُـفـلاءُ

(حلزة، ١٩٩٦م، صفحة ٤٤)

وقول حسّان بن ثابت: مخاطباً أبا سفيان بن حرب في شأنِ أبي أُزيهر، وكان الوليد بن المغيرة المخزومي قتله، وكان أبو سفيان صِهره فأراد حقن الدماء ولم يطب بدمه *(الحموي، ١٤٢٩هـ = ٢٠٠٨م، صفحة ٧/ ٢٠٧)*، فقال حسّان:

غـدا أهـلُ حِضْـنَيْ ذي المجـاز وجارُ ابنُ حَربٍ بالمحَصَّـبِ ما يغدو

كـسـاك هـشـامُ بـنُ الـولـيـدِ ثـيـابَـهُ فـأَبْـلِ وأَخْـلِفْ مثـلها جُـدُداً بعـدُ

(الأنصاري، ١٤١٢هـ = ٢٠١١م، صفحة ١٥٢)

وقال أبو ذؤيب الهذلي:

وراحَ بهـــا مِـــن ذي المجـــاز يُبـــادِرُ أُولى السابقاتِ إلى الحَبلِ

(الهذلي، ١٤٢٤هـ = ٢٠٠٣م، صفحة ١٩٥)

وقال المتوكل الليثي:

للغـانـيـاتِ بـذي الـمـجـازِ رُسُـومٌ في بَـطـنِ مـكَّـةَ عَهـدَهُـنَّ قـديـمُ

(الحموي، ١٤٢٩هـ = ٢٠٠٨م، صفحة ٧/ ٢٠٧)

وقد عاصرت تلك الأسواق العصر الجاهلي الذي كان فيه ما وصل إلينا من شعر وأدب *(خفاجي، ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م، صفحة ١١٦)*، وكانت سبباً في اتساع نطاق الشعر في ذلك العصر، لأن الشِعر لم يبقَ مقتصراً على التعبير عن الخيال والوجدان فحسب، بل شمل ذِكر المفاخر ووصف المعارك وتعداد الحوادث ولذلك سُمّي (ديوان العرب) أي سجل تاريخهم، من أجل ذلك أُقتضُي أنْ يُنشد في المجتمعات وفي الحَفل الغفير، فأخذ الشعراء يؤُمّون الأسواق لينشر كُلٌ واحدٍ منهم محامد قومه أو يَدُلَّ على

براعةِ نفسه، لأنَّ العرب كانوا يتخذون تلك الأسواق – فضلاً عن صفتها التجارية – مواسم قومية وأدبية، لاجتماع الناس فيها من كل أوبٍ وصوب *(فرّوخ، (د. ت)، الصفحات ١/ ٧٣-٧٤)*.

وقد كانوا لذلك العهد "يتعلقون بالكلمة السائِرة والخبر المُرسل، لا يعدلون بذلك شيئاً، لِمَا رُكِّبَ في طِباعهم مِن الفخر وحُب المَحْمَدَة، وما أنصرفوا إليه مِن المباهات بالفصاحة وقوةَ العارضة وقُرب ما بين اللسان والقلب ونحو ذلك مِمّا اقتضته أحوالهم يومئِذ" *(الرافعي، ٢٠٠٩م، صفحة ١/ ٧٨)*، مِن أجل ذلك "أنشأ العَربُ أسواقاً عامة يتعارفون فيها ويتحابون، فلم تكن هذه الأسواق في عكاظ ومَجَنَّة وذي المجاز سوى مؤتمرات للشعر في الحقيقة خالية من التحكّم على النفوس، ولا شيء أروع من تلك الأسواق على ما كان يسودُها مِن البساطة فقد كانت تشابه الألعاب الأولمبية" *(خفاجي، ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م، صفحة ٢٦)*.

وفي هذه الأسواق كان ينشُد الشاعر الفحل قصيدته، والخطيب المُصقَع كلمته، ويقف أشراف العرب يفخرون بمناقبهم ومفاخر قومهم، كما فعل عمرو بن كلثوم التغلبي حين قام خطيباً بسوق عكاظ وأنشدَ مطولته المشهورة *(الأصفهاني، ١٤٢٥هـ = ٢٠٠٤م، صفحة ٩/ ٨٤)*، التي يقول في مطلعها:

ألّا هُبّي بصحنِكِ فاصبحينا ... ولا تبقي خمور الأندرينا

(الزوزني، ٢٠٠٥م، صفحة ١٣٧)

وكان الأعشى يوافي سوق عكاظ كُلَّ سنة، وفيها انشدهم قصيدته في مدح المُحَلَّق *(الأصفهاني، ١٤٢٥هـ = ٢٠٠٤م، صفحة ٩/ ٨٤)*:

لعَمْري لقَدْ لاحَتْ عيونٌ كثيرةٌ ... إلى ضوءِ نارٍ في يَفاعٍ تُحَرَّقُ

تَشُبُّ لِمَقْرورَينِ يَصْطَلِيانِها ... وبَاتَ على النَّارِ النَّدى والمُحَلَّقُ

يَدَاكَ يَدَا صِدْقٍ فَكَفٌّ مُفيدَةٌ ... وأُخرى، إذا ما ضُنَّ بالزَّادِ تُنْفِقُ

(قيس، ١٤٣٠هـ = ٢٠٠٩م، الصفحات ١٢٧-١٣٠)

وفي عكاظ مدح دريد بن الصمة (ابن جُدعان) بعد أن هجاه، فقال:

إليكَ ابنَ جُدعانَ أعملتُها مخفّفةً للسَّرى والنَّصَبْ

(الأصفهاني، ١٤٢٥هـ = ٢٠٠٤م، الصفحات ١٠/ ١٨-١٩)

وكانت الخنساء تشهد الموسم بعكاظ وتعاظم العرب بمصيبتها في أبيها (عمرو بن الشريد) وأخويها (صخر) و(معاوية)، وتنشُدُ في ذلك القصائد *(الهمذاني، ١٩٥٣م، صفحة ٢٦٣)*.

وفي عكاظ عُلّقتْ القصائد السبع الشهيرة افتخاراً بفصاحتها على من يحضر الموسم من شعراء القبائل *(الآلوسي، ٢٠٠٩م، صفحة ١/ ٢٦٤)*، ومن هنا جاءت تسميتها بـ (المعلقات)، قيل: كتبوها بالذهب وعلّقوها في هذه السوق أو على جدران الكعبة *(خلدون، ١٤٢٨هـ = ٢٠٠٧م، صفحة ٦١٧)*.

وفي عكاظ خطب حكيم العرب (قس بن ساعدة الإيادي) خطبته المشهورة التي شهِدها منه رسول الله (صلى الله عليه وآلهِ وسلم) وهو يخطب الناس على جمل أورق، فذكّرهم بالله (سبحانه وتعالى) والموت *(الأصفهاني، ١٤٢٥هـ = ٢٠٠٤م، الصفحات ١٦٤-١٦٥)*، وكانت بعكاظ منابر في الجاهلية يقوم عليها الخطيب بخطبته وفِعالِهِ وعَدِّ مآثِرِهِ وأيّام قومه مِن عام إلى عام فمنها أخذت العرب أيّامها ومفاخرها *(خفاجي، ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م، صفحة ١١٦)*.

فقد كانت هذه الأسواق مسرحاً أو سبباً لكثير من أيام العرب وحروبها في الجاهلية، على نحو ما رأينا في حروب (الفِجَار) وهي حروب أربع وكانت كلها في سوق عكاظ وبسببها *(الآلوسي، ٢٠٠٩م، الصفحات ١/ ٢٦٦-٢٦٧؛ هلال، ١٤٢٥هـ = ٢٠٠٤م، الصفحات ٢٤٦-٢٥٠)*، وكانت في هذه الأسواق وقعة بعد وقعة *(منظور، ١٤٢٣هـ = ٢٠٠٣م، صفحة ٦/ ٣٨٥؛ الآلوسي، ٢٠٠٩م، صفحة ١/ ٢٦٥)*، وكانت هذه الحروب والأيام التي دُوّنت في كتب التاريخ والأدب – وقد أخذتها العرب من أسواقها– محوراً لكثير من القصائد والأمثال والقصص، وأكثر الأدب الجاهلي يدور حولها *(الأسكندري، أمين، الجارم، البشري، و ضيف، ١٤٢٥هـ = ٢٠٠٤م، صفحة ٢٩)*، يقول المشتشرق سيديو: "كانت تحدث بعد الوقائع الدامية مباريات فخر وكرم عُرِفَتْ بالمنافرات، ويقع التحكيم

فيها مِن حَكَمٍ يرضونه، وأحكامٌ كهذه لا بُدَّ أنْ تصدُرَ في احتفال كبير فتؤثر في النفوس تأثيراً جليلاً" *(خفاجي، ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م، صفحة ٢٧)*.

ومثلما كانت الأسواق – ولاسيّما سوق عكاظ – ميداناً للشعراء والأدباء حتى صار الأدب من سلع تلك الأسواق *(عتيق، ١٤٣١هـ = ٢٠١٠م، صفحة ٢٨)*، فقد كانت – أيضاً – مدرسة لنقد الشعر والخطب وتنقيحها وتمحيصها، يقول الأستاذ أحمد أمين: "كانت عكاظ معرضاً للبلاغة ومدرسة بدوية يلقى فيها الشعر والخطب وينقَدُ ذلك كُلّه ويُهذّب" *(خفاجي، ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م، صفحة ٢٧)*.

وكان يُضربُ في عكاظ قِبَابٌ مِن أَدَمَ ، قال أبو ذؤيب الهذلي:

إذا بُـنيَ الـقِـبـابُ عـلـى عـكـاظٍ وقـام الـبـيـعُ واجـتـمـع الأُلـوفُ

(الهذلي، ١٤٢٤هـ = ٢٠٠٣م، صفحة ١٩٥)

وكان للشعراء في هذه الأسواق حُكّامٌ مِن ذوي البصر بالشعر والمكانة فيه يتحاكمون إليهم فيما ينشدون، ومِن هؤلاء الحُكّام النابغة الذبياني المشهود له من معاصريه بالتفوق الشعري، والقدرة على تذوّق الشعر ونقده *(عتيق، ١٤٣١هـ = ٢٠١٠م، صفحة ٢٨)*.

قال صاحب الأغاني فيما رواه عن عبد الملك بن قُريب الأصمعي: "كانَ يُضربُ للنابغة قُبّةٌ مِن أَدَم بسوق عكاظ، فتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها، وقال: وأوّل مَن أنشده الأعشى ثم حسان بن ثابت، ثم أنشدته الشعراء، ثم أنشدته الخنساء بن عمرو بن الشريد:

وإنَّ صـخـراً لـتـأتَـمُّ الـهُـداةُ بـهِ كـأنّـه عَـلَـمٌ فـي رأسـه نـارُ

فقال: والله لولا أنَّ أبا بصير – الأعشى – أنشدني آنفاً لقلتُ: إنّكِ أَشعرُ الجِنّ والإنس، فقام حسان وقال: والله لأَنا أشعرُ منكَ ومِن أبيك، فقال له النابغة: يا ابن خالي، أنتَ لاتُحسِنُ أنْ تقول:

فإنّكَ كالليـلِ الـذي هو مُـدركي وإنْ خِلتُ أنَّ المنتأى عنك واسـعٌ

قال: فخنس حسان لقوله" *(الأصفهاني، ١٤٢٥هـ = ٢٠٠٤م، الصفحات ١١/ ٦-٧)*.

وروى أبو عمرو بن العلاء أنَّ الأعشى أتى النابغة ذات مَرّة فكانَ أوّلَ مَن أنشده، ثم أنشده حسان بن ثابت الأنصاري:

لنـا الجفنـاتُ الغُرُّ يلمَعنَ في وأســـيافُنا يقطُرنَ مِن نَجدَةٍ دَمَا

وَلَدنا بني العنقاء وابنَ مُحَرِّقٍ فأكرِمْ بِنَا خالاً واكرِمْ بِنا ابنَمَا

فقال له النابغة: أنت شاعر، ولكنّكَ أقلَلتَ جِفانَكَ وأسيافَك، وَفَخَرتَ بِمَنْ ولدْتَ، ولم تفخر بِمَنْ وَلَدَك *(المزرباني، ١٤١٥هـ = ١٩٩٥م، الصفحات ٧٥-٧٧)*.

ومِن ذلك أيضاً ما رواه أبو الفرج الأصفهاني نقلاً عن الزبير عن محمد بن الحسن قال: "قال حسّان: جئتُ نابغة بني ذبيان، فوجدتُ الخنساء بنت عمرو حين قامَتْ من عنده، فأنشدتهُ، فقال: إنّك لشاعر، وإنَّ أختَ بني سُليم لبكّاءة" *(الأصفهاني، ١٤٢٥هـ = ٢٠٠٤م، صفحة ٤/ ٢٩)*.

فُحُكمُ النابغة هنا لحسان بالشاعرية يعني أنّه عليمٌ بالصفات التي يجب توافرها للشِعر حتى يَصُحَّ أنْ يُطلقَ على صاحبه لقب (شاعر)، كما أنَّ في الحُكم على الخنساء بأنها (بكّاءَة) إشارة مِن طرفٍ خفي إلى أنَّ النابغة كان يرى أنَّ الشاعر لا ينبغي أنْ يقصُرَ شعره أو معظمه على غرض واحد، كما فعلتْ الخنساء بالإكثار مِن مراثيها الباكية في أبيها وأخويها ولا سيّما صخر، وإنما ينبغي على الشاعر أنْ يجول بشاعريته في أغراض شتى *(عتيق، ١٤٣١هـ = ٢٠١٠م، صفحة ٣١)*.

وعلى الرُغم مِن أنَّ عدداً مِن الدارسين المحدثين قد شكَّكَ في صحة ورود مثل هذا النقد عن النابغة وغيره من مُعاصريه، لأسباب فنية تتعلق بطبيعة تلك الأحكام، وأخرى ذاتية تتعلق بالذهنية العلمية للجاهليين *(عتيق، ١٤٣١هـ = ٢٠١٠م، الصفحات ٢٩-٣٠؛ الصفار و حلاوي، ١٩٩٩م، صفحة ١٣، ١٥، ١٧؛ طه، ١٩٨١م، صفحة ٣٣)*، إلّا أنَّ الدكتورة (هند حسين طه) قد كفتنا مؤونة الرّد على مثل هذه الآراء بقولها: "ونحن لا نستبعدُ مثل هذه الأحكام النقدية إذ قد تكون سايَرتْ الأدب مُسايرةً فعلية، وليس هذا ببعيدٍ على عرب الجاهلية، الذين عُرِفوا بأسواقهم، ومبارياتهم الأدبية فيها" *(طه، ١٩٨١م، صفحة ٣٣)*.

إذ كان مِن الطبيعي خلال تلك المساجلات الشعرية أنْ يَنقُدَ الشعراء بعضهم بعضاً مِن الناحية الفنية التي يتسابقون على بلوغ شأوتِها، وكان لذلك دوره في نقد الشعر وتهذيبه *(عتيق، ١٤٣١هـ = ٢٠١٠م، صفحة ٢٨)*، وما مِن شَكٍّ "أنَّ ما وصل إلينا من الشعر الجاهلي، على صورته التي نعرفها، وبنضجها النضج الكامل، وبانسجام تفاعيل قصائدها، وائتلاف نغمها، لم يكن وليد ليلته، ولم يصل إلينا إلّا بعد تطوّرٍ مَرَّ عليه، وبهذا فلا بُدَّ أنه تعرّض للنقدِ والتقويم، حتى أنتهى إلى ما وصل إليه مِن الصحة والجودة" *(طه، ١٩٨١م، صفحة ٣٦)*.

وهكذا كانت تلك الأسواق ميداناً للشعر والنقد على حَدٍّ سواء، كما كانت من أهم عوامل ازدهارهما وتطورهما، يقول الدكتور عبدالعزيز عتيق: "والذي يتتبّع حركة النقد الأدبي في أُخريات العصر الجاهلي يرى أنَّ ميادين نشاطه كانت تتمثل في أسواق العرب، وفي المجالس الأدبية العامة... ففي هذه الأماكن والبيئات كان العرب يجتمعون ويتناشدون الأشعار ويتناقدون، فكان ذلك عاملاً اجتماعياً في ترقيق ألفاظ الشعر، وإحكام معانيه، وتهذيب حواشيه، ونهضة النقد المتصل به" *(عتيق، ١٤٣١هـ = ٢٠١٠م، الصفحات ٢٠-٢١)*.

وعلى الرُغم مِن أنّ الكثير من تلك الأحكام والآراء النقدية – التي رويت في الأسواق – كانت تتّسِم بالعفوية، وتنطلق مِن العاطفة والذوق الفطري، وتكاد تخلو من التعليل المنطقي أو التحليل الفني، إلّا أنها تمثل نواة النقد الأدبي العربي وأُولى مراحله *(عتيق، ١٤٣١هـ = ٢٠١٠م، الصفحات ٢٠-٢١، ٣٧-٣٨؛ طه، ١٩٨١م، صفحة ٤١)*.

بل إنَّ تلك الأسواق بقيَتْ تعمل عملها النقدي حتى في العصر الإسلامي، وتجلى ذلك في أسواق المربد والكُناسة، تقول الدكتورة (هند حسين طه): "وفي بحثنا هذا لأولية النقد الأدبي، عند عرب الجاهلية، رأينا أنَّ التحكيم في النقد، كان يجري في الأسواق، في عكاظ في الجاهلية، وفي المربد والكناسة في العصر الإسلامي" *(طه، ١٩٨١م، صفحة ٣٥)*.

ومِن هنا تتبيَّن فاعلية الجمهور الأدبي – الذي يفهم الشعر ويتذوقه فيحكُمُ عليه – وخطره في العملية النقدية، ويتمثّل هذا الأمر بما لا شكَّ فيه بالأسواق الأدبية التي كانت تُقام في أرجاء جزيرة العرب، مثل سوق عكاظ ومَجَنَّة وذي المجاز والمربد والكُناسة *(الصفار و حلاوي، ١٩٩٩م، الصفحات ١٦-١٧)*.

وكان الجاحظ بما يُشهَدُ له مِن الثقافة، مِن أوائل النقادالعرب الذين نصحوا الشعراء والأدباء، باللجوء إلى صفوة الجمهور والاحتكام إلى ذوقهم، والثقة في هذا الذوق، حيث يقول: "فإنْ أَردتَ أنْ تتكلّفَ هذه الصناعة، وتُنسب إلى هذا الأدب، فقرضتَ قصيدةً، أو حبّرتَ خطبةً، أو أَلَّفتَ رسالةً، فإيّاك أنْ تدعوك ثقتُكَ بنفسِك، أو يدعوك عُجبُكَ بثمرةِ عقلِك إلى أنْ تنتحِله وتدّعيه، ولكن اعرِضه على العلماء في عُرْضِ رسائل أو أشعارٍ أو خُطب، فإنْ رأَيتَ الأسماعَ تُصغي له، والعيون تُحَدِّجُ إليه، ورأيتَ مِن يطلبَه ويستحسنَه، فانتحِله... فإنْ عاودتَ أمثالَ ذلك مِراراً، فوجَدتَ الأسماعَ عنه منصرفة، والقلوب لاهية، فخذ في غير هذه الصناعة، واجعل رائدَكَ الذي لايَكْذِبُكَ حِرصَهم عليه، أو زهدَهم فيه" *(الجاحظ، ١٤٢٠هـ = ١٩٩٩م، صفحة ١/ ١٩٩)*.

من أجل ذلك كان الشعراء يتبارون في سوق عكاظ، وكان مرجِعهُم في الفصل بينهم إلى محكّمين اتفقوا عليهم وخضعوا لهم، فكانوا يحكمون لِمَنْ وضَحَ بيانُه وفصح لسانه، فَمَنْ حَكَمَ له أنداده أُختيرَتْ قصيدتُه وعُلّقَتْ؛ قيل: أعدّوها عِلقاً أي شيئاً نفيساً، وقيل: بل علقوها بالذهن أي حفظوها عن ظهر قلب *(فرّوخ، (د. ت)، صفحة ١/ ٧٥)*، وكانت "قصائد الشعراء إذا ما تقبّلها مؤتمرات عكاظ بقبول حَسَن، كُتبَتْ بحروفٍ مِن ذهب على نُسُجٍ ثمينة وعُلِّقَتْ في الكعبة لتحفظ للحَفَدَة" *(خفاجي، ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م، صفحة ٢٧)*.

ولذلك كانت القصيدة المُحكَّمَة تُعَدُّ شيئاً نفيساً عند العرب *(أبو زيد و كفافي ، ١٤٣٢هـ = ٢٠١١م، صفحة ٣٩)*، ومِمّا يدعَمُ هذا الرأي، ماتناقله الرواة مِن أنَّ العرب "كانت تعرض أشعارها على قريش، فما قبلوه مِنها كان مقبولاً، وما ردّوه منها كانَ مردوداً، فقَدِم عليهم علقمة بن عبدة وأَنشدهم قصيدته التي يقول فيها:

هل عَلِمْتَ وما اســـتُودِعْتَ مكتُومُ أَمْ حَبْلُها إِنْ نأَتْكَ اليومَ مَصـــــرُومُ

فقالوا: هذه سِمطُ الدَّهر، ثم عادَ إليهم العام المقبل فأنشدَهم:

طَحَا بكَ قلبٌ في الحِسَـــانِ طَرُوبُ بُعيــدَ شــبابٍ عَصْرَ حانَ مشــيبُ

فقالوا: هاتان سِمطا الدهر" *(الأصفهاني، ١٤٢٥هـ = ٢٠٠٤م، صفحة ٢١/ ١٤٤)*.

لأَنَّ لغة قُريش – حينذاك – قد صارت لغة الجزيرة العربية كلها، واللغة الأدبية التي يكتب بها الشعراء والأدباء، فكان الشعر ينظمُ بها ليكون أَذيع وأَشيع، وأقربَ إلى فهم كل القبائل *(عتيق، ١٤٣١هـ = ٢٠١٠م، صفحة ٢٨)*، وكانت الأسواق مِن أهم عوامل سيادة لغة قريش على سائر لغات العرب الأخرى، يقول المستشرق سيديو: "وإذا كان الخطباء والشعراء وكلّ ذي كلام – يُريد له سِعَة فَهْمٍ، وكثرة ذيوع، ولا بُدَّ أنْ يُريد – يرون لغة قريش أوفى اللغات بهذا، فقد انتسبوا إليها جميعاً يستوحون فصاحتها وبيانها، ويستمدّون قوتها وسلطانها حتى غطّت على جميع اللهجات، فأصبحَتْ العلم الذي بنورِهِ يُهتَدَى، والإمام الذي به يُقتدى، عَرَفَ العرب لها ذلك واعتقدوه في المحاكاة والتقليد، فأخذوا يتقرّبون بلغاتهم إليها، وكانت الأسواق مِن أقوى العوامل على هذا" *(خفاجي، ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م، صفحة ٧)*.

وعلى الجملة فقد كانت الأسواق ميداناً لاجتماع العرب وتبادلهم التجارة، كما كانت سبباً في دعم الوحدة والتفاهم بينهم، وفي مزجهم بعضهم ببعض، وفي التقريب بين لهجاتهم ولغاتهم، وكانت مع ذلك مجمعاً أدبياً كبيراً حيث كان يجتمع فيها الشعراء والخطباء فينشدون ويخطبون، وينقدُ ذلك كلّه ويُهذّب، ومن هذا كلّه نرى كيف كانت تلك الأسواق مركزاً لحركة أدبية ولغوية واسعة النطاق، مثلما كانت مركزاً لحركة اجتماعية واقتصادية.

الخاتمة:

بعد هذه الرحلة في بطون المصادر والكتب، يمكن أن نوجز أهمية الأسواق في حياة العرب، وأثرها في تطوّر اللغة وازدهار الأدب، بالنقاط الآتية:

١- **أهمية الأسواق:** كان لأسواق العرب، ولا سيما أسواق الحجاز (عُكاظ/ مَجَنّة/ ذو المَجاز)، أثرٌ كبيرٌ في حياة العرب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، فلم تقتصر على التجارة، وإنَّما كانت ميداناً لاجتماع القبائل، وفِداء الأسرى، وإبرام العُهود والمواثيق، وحروب العرب وأيّامها، كما كانت مِهرجاناً ثقافياً كبيراً تُلقى فيه الخُطب، وتُنشدُ فيه الأشعار، ولم نعرف أمَّةً من الأُمم أنشأت سوقاً للكلمة كما فعلت العرب في أسواقها.

٢- **مَراسيم الأسواق ومواسمها:** عُرفت هذه الأسواق (عُكاظ/ مَجَنّة/ ذو المَجاز)، بِحُسنِ تنظيمها وإدارتها، فقد كانت لها أعرافها ومراسمها، فكان لكُلِّ موسمٍ رئيسٌ يحتكم إليه الناس ويقضي بينهم، وكانت مواطنها قُربَ مكَّة المكرّمة، وأمّا مواسمها فكانت تُعقد في شهرَي ذي القِعدة وذي الحِجة، فإذا انقضت، انصرفت جُموع العرب للوقوف في عرفة، وذلك بلا ريب سِرُّ قوَّتِها، وسببُ شُهرتها.

٣- **أثرُ الأسواق في تهذيب اللغة وتطوّرها:** مرَّت اللغةُ العربية بأطوارٍ عِدَّةٍ مِن التَّطوّر والتَّهذيب حتى وصلت إلى اللغة العربية المحضة (العدنانية) أو (المُضرية) الفُصحى الخالصة، والتي صارت فيما بعد (لُغةُ قُريش)، واللغة الأدبية لكُلِّ قبائل العرب، وقد أوجز العُلماءُ أطوار تهذيب اللغة العربية في عاملينِ، الأوّل: هجرة القبائل، والثاني: اجتماع القبائل واختلاط بعضهم ببعض، والعامل الثاني هو بسبب الأسواق وعملها وما تركته من أثرٍ في الحياة العربية، وقد تجلّى هذا الاجتماع والاختلاط بين القبائل مِن خلالِ ثلاثِ صورٍ رئيسة، وهي: الحروب، والتجارة، والحج، وكُلُّها وثيقة الصِّلةِ بهذه الأسواق.

٤- **أثر الأسواق في ازدهار الأدب:** لم تكن هذه الأسواق للتجارة فحسب، بل كانت سوقاً للشعر والخطابةِ أيضاً، يجتمع فيها العرب قيتفاخرونَ ويتناشدونَ، وكثيراً ما كانت تقدَّم فيها المُفاخراتُ والمُنافرات، وقد عاصرت هذه الأسواق العصر الجاهلي الذي كان فيه ما وصل إلينا مِن شعرٍ وأدب، وكانت سبباً في اتساع نطاق الشعرِ والأدبِ وازدهارهما في ذلك العصر.

٥- **أثرُ الأسواق في النقد اللغوي والأدبي:** لم يقتصر دَور تلك الأسواق في كونها مِن عوامل تطوّر اللغة والأدب وازدهارهما فحسب، وإنَّما كان لها دَورٌ كبيرٌ في النَّقد اللغوي والأدبي أيضاً، فَعلى صعيد اللغة، كانت تلك الأسواق تعمل عملَ المجامع اللغوية في عصرنا الحالي في الفهم والنَّقد والإثارِ والاختيار ثُمَّ في التَبادل اللغوي بين القبائل عامة، مِن خلال نقد اللَّهجات وتهذيبها، وصقلِ مفرداتها وأساليبها، وأمّا على صعيد الأدب، فثلما كانت تلك الأسواق – ولا سِيَّما عُكاظ – ميداناً للشُعراءِ والأُدباء، فقد كانت أيضاً مدرسةً لنقد الأشعار والخُطب وتنقيها وتمحيصها، وعلى الرُغمِ مِمَّا اتسمت بِه الكثير مِن تلك الأحكام والآراء النَّقدية التي رُوييت في تلك الأسواق مِن العَفويةِ والذَّوق الفطري، إلّا أنَّها تُمثِّلُ نواة النَّقد الأدبي العربي، وأولى مراحله الحقيقية.

ثبت المصادر والمراجع:

- أبو الفرج الأصفهاني. (١٤٢٥هـ = ٢٠٠٤م). *الأغاني* (الطبعة الثانية). (تحقيق: الدكتور إحسان عباس وإبراهيم السعافين والأستاذ بكر عباس) بيروت - لبنان: دار صادر.
- أبو عبدالله محمد بن عمران بن موسى المزرباني. (١٤١٥هـ = ١٩٩٥م). *الموشّح في مآخذ العلماء على الشعراء* (الطبعة الأولى). (تحقيق: محمد حسين شمس الدين) بيروت - لبنان: دار الكتب العلمية.
- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ. (١٤٢٠هـ = ١٩٩٩م). *البيان والتبين* (الطبعة الثانية). (تحقيق وشرح: حسن السندوبي، قدّم له ونقّحه وأعدّ فهارسه: مصطفى القصّاص) بيروت - لبنان: دار إحياء العلوم.
- أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمذاني. (١٩٥٣م). *صفة جزيرة العرب* (د. ط). (تحقيق: محمد بن بلهيد النجدي) القاهرة - مصر: مطبعة السعادة.
- أبو نصر إسماعيل بن حمّاد الجوهري الفارابي. (١٤٣٠هـ = ٢٠٠٩م). *الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية)* (الطبعة الخامسة). بيروت - لبنان: دار إحياء التراث العربي.
- أبي ذؤيب الهذلي. (١٤٢٤هـ = ٢٠٠٣م). *ديوان أبي ذؤيب الهذلي* (الطبعة الأولى). (تحقيق: الدكتور أنطونيوس بطرس) بيروت - لبنان: دار صادر.
- أحمد حسن الزيّات. (١٤٣٠هـ = ٢٠٠٩م). *تاريخ الأدب العربي للمدارس الثانوية والعُليا* (الطبعة الأولى). بيروت - لبنان: دار المعرفة.
- إسرائيل ولفنسون. (١٩٢٩م). *تاريخ اللغات السامية* (د. ط). القاهرة - مصر: مطبعة الاعتماد.
- الإمام الأديب القاضي المحقق أبو عبدالله الحسين بن أحمد بن الحسين الزوزني. (٢٠٠٥م). *شرح المعلقات السبع* (د. ط). (تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد) القاهرة - مصر: دار الطلائع.

- الإمام العلامة ابن منظور. (١٤٢٣هـ = ٢٠٠٣م). *لسان العرب* (د. ط). (تحقيق: نخبة من الأساتذة المختصين) القاهرة - مصر: دار الحديث.
- الإمام جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي. (١٤١٨هـ = ١٩٩٨م). *المزهر في علوم اللغة وأنواعها* (الطبعة الأولى). (تحقيق: فؤاد علي منصور) بيروت - لبنان: دار الكتب العلمية.
- الحارث بن حلزة. (١٩٩٦م). *ديوان الحارث بن حلزة ويليه شعر بكر وأخبار حَرب البسوس* (الطبعة الأولى). (إعداد وتقديم: طلال حرب) بيروت - لبنان: دار صادر.
- الدكتور سامي يوسف أبو زيد، والدكتور منذر ذيب كفافي . (١٤٣٢هـ = ٢٠١١م). *الأدب الجاهلي* (الطبعة الأولى). عَمَّان - الأردن: دار المسيرة.
- الدكتور شوقي ضيف. (٢٠١١م). *العصر الجاهلي (تاريخ الأدب العربي)* (الطبعة الحادية والثلاثون). القاهرة - مصر: دار المعارف.
- الدكتور عبدالعزيز عتيق. (١٤٣١هـ = ٢٠١٠م). *تاريخ النقد الأدبي عند العرب* (د. ط). بيروت - لبنان: دار النهضة العربية.
- الدكتور عمر فرّوخ. (د. ت). *تاريخ الأدب العربي* (د. ط). بيروت - لبنان: دار العلم للملايين.
- الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجي. (١٤١٢هـ = ١٩٩٢م). *الحياة الأدبية في عصر الجاهلي* (الطبعة الأولى). بيروت - لبنان: دار الجيل.
- الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجي. (١٤١٢هـ = ١٩٩٢م). *دراسات في الأدب الجاهلي والإسلامي* (الطبعة الأولى). بيروت - لبنان: دار الجيل.
- الدكتورة إبتسام مرهون الصفار، و الكتور ناصر حلاوي. (١٩٩٩م). *محاضرات في تاريخ النقد عند العرب* (الطبعة الثانية). جامعة الموصل - العراق: دار الكتب للطباعة والنشر.
- الدكتورة هند حسين طه. (١٩٨١م). *النظرية النقدية عند العرب حتى نهاية القرن الرابع الهجري* (د. ط). العراق: دار الرشيد، منشورات وزارة الثقافة والإعلام.
- السيد محمود شكري الآلوسي. (٢٠٠٩م). *بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب* (الطبعة الأولى). (تحقيق: محمد بهجة الأثري) بيروت - لبنان: دار الكتب العلمية.
- الشيخ أبو علي المرزوقي. (١٣٣٢هـ). *الأزمنة والأمكنة* (الطبعة الأولى). الهند: دار المعارف.
- الشيخ الإمام شهاب الدين أبي عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي. (١٤٢٩هـ = ٢٠٠٨م). معجم *البلدان* (الطبعة الأولى). (تحقيق: محمد عبدالرحمن المرعشلي) بيروت - لبنان: دار إحياء التراث العربي.
- العلامة عبدالرحمن بن محمد بن خلدون. (١٤٢٨هـ = ٢٠٠٧م). *مقدمة ابن خلدون* (الطبعة الأولى). (تحقيق: هيثم جمعة هلال) بيروت - لبنان: مؤسسة المعارف.
- النابغة الذبياني. (١٤٣٢هـ = ٢٠١٠م). *ديوان النابغة الذبياني* (الطبعة الثالثة). (تحقيق: كرم البستاني) بيروت - لبنان: دار صادر.
- حاتم الضامن. (١٩٧٣م). المُخَبَّل السعدي (حياته وما تبقّى من شعره). *مجلة المورد، المجلد (٢)* العدد (١).
- حسّان بن ثابت الأنصاري. (١٤١٢هـ = ٢٠١١م). *ديوان حسّان بن ثابت الأنصاري* (الطبعة الأولى). (شرح: الدكتور يوسف عيد،) بيروت - لبنان: دار الجيل.
- محمد لطفي جمعة. (١٣٤٤هـ = ١٩٢٦م). *الشهاب الراصد* (الطبعة الأولى). مصر: مطبعة المقتطف.
- مصطفى صادق الرافعي. (٢٠٠٩م). *تاريخ آداب العرب* (الطبعة الثانية). بيروت - لبنان: دار الكتب العلمية.
- ميمون بن قيس. (١٤٣٠هـ = ٢٠٠٩م). *ديوان الأعشى الأكبر* (الطبعة الثانية). (شرح: عبدالرحمن المصطاوي) بيروت - لبنان: دار المعرفة.

❖ هيثم جمعة هلال. (١٤٢٥هـ = ٢٠٠٤م). *موسوعة حروب ومعارك العرب في الجاهلية* (الطبعة الأولى). بيروت - لبنان: دار المعرفة.

Bibliography

- **Abu Dhu'ayb al-Hudhali.** (2003). *Diwan Abi Dhu'ayb al-Hudhali* [The collected poems of Abu Dhu'ayb al-Hudhali] (1st ed.; A. Boutros, Ed.). Dar Sader. [In Arabic]
- **Abu Zaid, S. Y., & Kafafi, M. D.** (2011). *Al-Adab al-Jahili* [Pre-Islamic literature] (1st ed.). Dar Al-Masirah. [In Arabic]
- **Al-Alusi, M. S.** (2009). *Bulugh al-arab fi ma'rifat ahwal al-Arab* [Attaining the goal in knowing the conditions of the Arabs] (1st ed.; M. B. Al-Athari, Ed.). Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah. [In Arabic]
- **Al-Dhamin, H.** (1973). Al-Mukhabbal al-Sa'di (hayatuhu wa-ma tabaqqa min shi'rihi) [Al-Mukhabbal al-Sa'di: His life and remaining poetry]. *Majallat Al-Mawrid*, 2(1). [In Arabic]
- **Al-Hamdani, H. A.** (1953). *Sifat Jazirat al-Arab* [Description of the Arabian Peninsula] (M. B. Al-Najdi, Ed.). Matba'at Al-Sa'adah. [In Arabic]
- **Al-Harith ibn Hillizah.** (1996). *Diwan Al-Harith ibn Hillizah wa-yalihi shi'r Bakr wa-akhbar harb al-Basus* [The collected poems of Al-Harith ibn Hillizah, followed by Bakr's poetry and stories of the Basus War] (1st ed.; T. Harb, Ed.). Dar Sader. [In Arabic]
- **Al-Isfahani, A. F.** (2004). *Kitab al-Aghani* [The book of songs] (2nd ed.; I. Abbas, I. Al-Sa'afin, & B. Abbas, Eds.). Dar Sader. [In Arabic]
- **Al-Jahiz, A. B.** (1999). *Al-Bayan wa al-Tabyin* [Eloquence and exposition] (2nd ed.; H. Al-Sandubi, Ed.; M. Al-Qassas, Rev.). Dar Ihya al-Ulum. [In Arabic]
- **Al-Jawhari, I. H.** (2009). *Al-Sihah: Taj al-lughah wa sihah al-Arabiyyah* [The authentic: Crown of language and authentic Arabic] (5th ed.). Dar Ihya al-Turath al-Arabi. [In Arabic]
- **Al-Marzubani, M. I.** (1995). *Al-Muwashah fi ma'akhidh al-'ulama' 'ala al-shu'ara'* [Al-Muwashah on scholars' critiques of poets] (1st ed.; M. H. Shams al-Din, Ed.). Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah. [In Arabic]
- **Al-Marzuqi, A. A.** (1914). *Al-Azminah wa al-amkinah* [Times and places] (1st ed.). Dar Al-Ma'arif. [In Arabic]

- **Al-Nabighah al-Dhubyani.** (2010). *Diwan Al-Nabighah al-Dhubyani* [The collected poems of Al-Nabighah al-Dhubyani] (3rd ed.; K. Al-Bustani, Ed.). Dar Sader. [In Arabic]
- **Al-Rafi'i, M. S.** (2009). *Tarikh adab al-Arab* [History of Arab literature] (2nd ed.). Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah. [In Arabic]
- **Al-Saffar, I. M., & Halawi, N.** (1999). *Muhadarat fi tarikh al-naqd 'inda al-Arab* [Lectures on the history of criticism among the Arabs] (2nd ed.). University of Mosul, Dar Al-Kutub for Printing and Publishing. [In Arabic]
- **Al-Suyuti, J. A.** (1998). *Al-Muzhir fi 'ulum al-lughah wa anwa'iha* [The luminous work on linguistic sciences and their types] (1st ed.; F. A. Mansour, Ed.). Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah. [In Arabic]
- **Al-Zawzani, H. A.** (2005). *Sharh al-Mu'allaqat al-Sab'* [Commentary on the seven suspended odes] (M. M. Abdul-Hamid, Ed.). Dar Al-Tala'i. [In Arabic]
- **Al-Zayyat, A. H.** (2009). *Tarikh al-adab al-Arabi lil-madaris al-thanawiyyah wa al-'ulya* [History of Arabic literature for high schools and universities] (1st ed.). Dar Al-Ma'rifah. [In Arabic]
- **Ateeq, A.** (2010). *Tarikh al-naqd al-adabi 'inda al-Arab* [History of literary criticism among the Arabs]. Dar Al-Nahdah Al-Arabiyyah. [In Arabic]
- **Dayf, S.** (2011). *Al-Asr al-Jahili: Tarikh al-adab al-Arabi* [The Pre-Islamic era: History of Arabic literature] (31st ed.). Dar Al-Ma'arif. [In Arabic]
- **Farroukh, O.** (n.d.). *Tarikh al-adab al-Arabi* [History of Arabic literature]. Dar Al-Ilm Lil-Malayin. [In Arabic]
- **Hassan ibn Thabit.** (2011). *Diwan Hassan ibn Thabit al-Ansari* [The collected poems of Hassan ibn Thabit al-Ansari] (1st ed.; Y. Eid, Comm.). Dar Al-Jeel. [In Arabic]
- **Hilal, H. J.** (2004). *Mawsu'at hurub wa-ma'arik al-Arab fi al-Jahiliyyah* [Encyclopedia of Arab wars and battles in the Pre-Islamic era] (1st ed.). Dar Al-Ma'rifah. [In Arabic]
- **Ibn Khaldun, A. M.** (2007). *Muqaddimat Ibn Khaldun* [The Muqaddimah of Ibn Khaldun] (1st ed.; H. J. Hilal, Ed.). Mu'assasat Al-Ma'arif. [In Arabic]

- **Ibn Manzur, M. M.** (2003). *Lisan al-Arab* [The tongue of Arabs]. Dar Al-Hadith. [In Arabic]
- **Juma'ah, M. L.** (1926). *Al-Shihab al-Rasid* [The watchful shooting star] (1st ed.). Matba'at Al-Muqtataf. [In Arabic]
- **Khafaji, M. A.** (1992a). *Al-Hayat al-adabiyyah fi al-asr al-Jahili* [Literary life in the Pre-Islamic era] (1st ed.). Dar Al-Jeel. [In Arabic]
- **Khafaji, M. A.** (1992b). *Dirasat fi al-adab al-Jahili wa al-Islami* [Studies in Pre-Islamic and Islamic literature] (1st ed.). Dar Al-Jeel. [In Arabic]
- **Maymun ibn Qays (Al-A'sha).** (2009). *Diwan Al-A'sha al-Akbar* [The collected poems of Al-A'sha the Elder] (2nd ed.; A. Al-Mastawi, Comm.). Dar Al-Ma'rifah. [In Arabic]
- **Taha, H. H.** (1981). *Al-Nazariyyah al-naqdiyyah 'inda al-Arab hatta nihayat al-qarn al-rabi' al-hijri* [Critical theory among the Arabs until the end of the fourth AH century]. Dar Al-Rasheed. [In Arabic]
- **Wolfensohn, I.** (1929). *Tarikh al-lughat al-Samiyyah* [History of Semitic languages]. Matba'at Al-I'timad. [In Arabic]
- **Yaqut al-Hamawi, Y. A.** (2008). *Mu'jam al-Buldan* [Dictionary of countries] (1st ed.; M. A. Al-Mar'ashli, Ed.). Dar Ihya al-Turath al-Arabi. [In Arabic]